عبد السلام العجيلي

# مذاق النعل

بعد العشاء الدسم ، الغريب الالوان ، الذي اراد مضيفي ان يطلعني فيه على مهارة طهاته الهنود في طبخ الارز والسمك ممزوجين بالتوابل والافاويه ، شعرت بحاجة الى ان اسير وحيدا على الشاطىء استنشق هواء البحر واتأمل في نجوم الليل . وكنت في النهار قد اثبتّ في نهاية الخليج الصغير صخرة بارزة بين رمال الشاطىء واحجاره الصغيرة ، بعيدة عن منازل القرية ، فانحدرت متجها اليها اتكفأ في الرمل الذي خددته ارجل المشاة ، حتى تعودت عيناي على الظلام فبدا لي الطريق المرمل كأنه خط ابيض منير في عتمة بعد العشاء التي لفت الارض والفضاء .

كم لبثت في جلوسي على الصخرة ؟ لا استطيع ان احدد ذلك على التحقيق ، فقد نسيت في الايام الاخيرة عادة التوقيت ولم اعد القي النظر الى ساعة يدي الا نادرا . كنت منصرفا الى خواطري في السكون الذي لا يسمع فيه الا هسيس رمال الشاطىء عند ارتماء موج البحر عليها ، وفي الظلمة التي لا يرى فيها الا تألق النجوم في السماء وبريق بضعة اضواء كانت تصل الى عيني شاحبة من نوافذ القاعة الكبيرة في مقر مضيفي الشيخ. وفجأة تناهى الى سمعي صوت خطى مقتربة ، فأجلت نظري فيما حولي فلاح لي في الظلمة بياض ثوب قادم اليّ . اتراه احد ابناء الشيخ جاء ليؤنس وحدتي على الشاطىء ، او ليعود بي الى القاعة التي يسمر فيها ضيوف ابيه من شيوخ القبائل المجاورة ؟ ولم يلبث القادم حتى وقف الى قربي والقى عليّ السلام . انه واحد من عشرات مثله ممن تقع عليهم عيني كل يوم في هذه القرية وهذه البلاد ، فلم اكن اتبين منه في العتمة الغامرة غير ظل الوجه والعنق بين بياض المنديل الملفوف على الرأس وبياض الثوب الفضفاض الذي ينسدل على الجسم ويلعب نسيم البحر الدافىء الرطب بحواشيه . الا ان لهجة كلامه في سلامه كان فيها شيء استغربته اذني بعد تنقلي ثلاثة اسابيع بين مشيخات شاطىء بحر العرب وقراه . فادركت من تلك اللهجة ان مخاطبي هو مثلي رجل غريب عن كل هذه الارجاء .

استقمت في جلستي ، وكنت متكئا على مرفقي الى جانب من الصخرة عالٍ ، وقلت بصوت مرتفع : « وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . تفضل » .

قال الرجل : « اشكرك . انك تعمدت الابتعاد عن الناس ، وانا افسد عليك وحدتك بوجودي ».

وكانت لهجته في هذه الكلمات ناطقة بكونه غريبا عن هذه المنطقة، بل اني عرفت منها الى اي بلد ينتمي بالذات . وبدا لي حينذاك ، وانا اتأمل في شبحه المسربل بالبياض ، اقرب في القامة الى الطول عريض الكتفين وثيق البنيان ؛ بدا لي انه حتى في تكوينه بعيد عن تكوين ابناء هذا الساحل في دقة اعضائهم ونحول ابدانهم . واستمر مخاطبي يقول :

« نعم اني اعتذر عن ازعاجك . ولكني اظنك تقدّر دوافع من كان مثلي حين يرى انسانا قادما الى هذه البلاد من هناك . اني اعرفك قبل الآن ، اعني اني سمعت باسمك ، كما اني رأيت صورك في مرات عديدة » .

فقاطعته وانا اقول : « لا داعي للاعتذار . تفضل واسترح الى جانبي » .

وتزحزحت قليلا لاوسع له في المكان. وكان سطح الصخرة من الضيق بصورة انه حين جلس الى قربي كان مضطرا الى ان ينحرف بجسمه عني . وهكذا جلسنا وقد تلامس جذعانا بجنبينا ، بينما كل منا يتجه بوجهه الى ناحية : هو الى حيث كانت اشباح منازل القرية لا تكاد تبين في الظلام المطبق ، وانا الى سواد البحر الذي كانت تلمع فوقه نجوم كثيرة في سماء كامدة . قلت له :

« انك تتقن الحديث بلهجة القوم ، ولكن ليس من العسير ان يعرف الانسان انك لست من هنا . هل انت مدرس ؟ »

فاجاب : « مدرس ؟ من حسن الحظ ان ليس في هذه المشيخة مدرسة . اعني مدرسة بالمعنى العصري الذي نفهمه في بلادنا . ان الشيخ لا يؤمن الا بالكتاتيب وبتحفيظ القرآن. اقول من حسن الحظ ، وانا اعني حظي انا » .

قلت وانا البس كلامي لهجة المزاح :

« يبدو انك تمارس عملا لا سوق له الا في بلاد الاميين ! »

قال : « لا . اني اشرف هنا على المضخة التي تصفي المياه لشرب الشيخ ، واضبط له احيانا حساباته . ولكن فضيلة هذه القرية ان اهلها بسطاء في المعرفة ، ليس بينهم مثقفون. فانا لا استطيع ان اكتمك ان ريح الثقافة تخنقني» .

نطق مخاطبي بجملته الاخيرة في مرارة واضحة . قلت لنفسي ان هذا الرجل له ثأر على العلم وعلى الثقافة والمثقفين . من يدري ؟ قد يكون فقد كل ما يملكه في رأس مال مكتبة افلست ، او ان ابنا له قد قتله تحذلق الاطباء وتطبيق تجاربهم عليه ، او ان شيئا من هذا القبيل حل به فجعله يهجر بلاده الى هذا الشاطىء القاحل النائي . ورفعت صوتي قائلا :

« تريد ان تقول لي بهذا انك تلميذ لروسو ، لجان جاك روسو ، في كرهه للمدنية وللتطورات التي يحدثها التعليم في الطبيعة والانسان . فأنت مثقف يا صاحبي ، وهذا المنديل على رأسك والدشداشة على جسدك لن يغطيا على ما تم عنه لهجتك او مفردات حديثك . ولكن من يقول اليوم بما تقول به ؟ ولا سيما في بلادنا التي لا تزال نسبة كبيرة من شعبنا في كل مكان منها ترزح تحت وطأة التخلف ؟ الم تر السجن في هذه القرية مثلا ؟ »

قال صاحبي : « السجن ؟ ما علاقة هذا بحديثنا ؟ يبدو أنك انت قد رأيته ، فماذا استغربت فيه ؟ »

قلت : « انا ضيف الشيخ هنا ، ولعله ليس من حقي ان اقول ما اقوله الآن . ولكني لا أستطيع أن اتجاهل ما رأيته اليوم في الظهيرة ، في الارض العراء التي تشويها الشمس دون ظلة تقي المسجونين المقيدين فيها . رأيت ستة سجناء مطروحين ارضاً ، الواحد بحذاء الآخر ، وأعناق أقدامهم مصفوفة على جذع شجرة طويلة مقطوع ، به بعض الانحناء ، في نهايته يمر سيخ من حديد كوتر على قوس الجذع . هل رأيت ذلك السيخ ؟ سيخ صدىء ، به بقع جافة من دم وصديد ، يحبس أرجل السجناء بينه وبين جذع الشجرة فلا يتقلب أحدهم أو يتحرك حركة الا ويأكل السيخ من جلده ولحمه . هذا هو السجن الذي قلت لك عنه . ويمر الناس بهذا السجن صباحاً ومساء فلا يرون فيه ما يستغرب ! فهل تقبل لبلادك أن يكون فيها شيء من هذا ؟ وهل تظن أن شيئاً من هذا يمكن ان يحدث لو ان نسمة من الريح التي تقول انك تختنق بها ، ريح الثقافة ، هبت هنا ؟ »

قال الرجل ببرود : « وأنت ترى هذا غريباً ؟ »

قلت : « نعم ، افلا تراه انت مثلي ؟ نحن في نهاية القرن العشرين ، وقد اصبح لكل انسان اعتداده بكرامته ، فهل تجد هذا المنظر الذي شاهدته اليوم لائقاً بالكرامة الانسانية ؟ »

وعلى الرغم من ان ما قلته كان يعبر بصدق عن مشاعري امام ما رأيته ظهر اليوم في سجن الشيخ ، فاني تعمدت ان اضفي على استنكاري في الاخير صبغة مازحة ، غير متشددة ، لأني ما كنت اعلم نوع الصلة التي تربط هذا الغريب الى قربي بمضيفي . ولم اكن اتوقع منه على كل حال رد فعل شديد لما قلته . لهذا فقد فوجئت اذ سمعته يطلق ضحكة عالية ، شبه هستيرية ، حين القيت عليه تساؤلي الاخير ، ثم رأيته ينحرف بجسمه حتى اصبح في مواجهتي وهو يقول : « تقول الكرامة الانسانية ؟ دعني اضحك !

الكرامة الانسانية . كأنك يا صاحبي عائش في المريخ ، او كأنك تظنني انا عائشاً فيه ! بودي لو احكي لك الف حكاية مما يجري في البلاد التي جئت منها لكي تعتذر للشيخ ، طويل العمر ، عن سوء تقديرك لسجنه . هل احكي ؟ »

واحسست في الظلام بمخاطبي يمسك بأصابع احدى يديه فخذي بعصبية ، وبشدة عرفت منها قوة بنيته ، وهو يقول مردداً سؤاله :

« هل اتكلم ؟ هل اروي لك قصة الزمرة التي كانت مؤلفة من خيرة الشباب فانتحر منهم من انتحر ، ودفن نفسه منهم من دفنها حياً ، وخرج منهم من خرج مغاضباً او يائساً ؟ هل احكي لك حكاية واحد من معارفي و كيف تلوت على ظهره وقدميه السياط ، وعصرت ساقيه الحبال ، وذبحت بين اسنانه الكرامة الانسانية ؟ انت يا استاذي المبجل تحب الكرامة الانسانية ، لذلك سأقص عليك قصة صاحبي هذا . لقد كان فتى شجاعاً مؤمناً بنفسه وبالانسان وبالمثل الاعلى ، وفي ذات يوم ... »

وفجأة سكت مخاطبي . سكت بعد ان كنت ظننته قد استرسل في قص حكاية ربما كانت جديرة بأن يصغي اليها المرء اذنه ، وربما كانت غثة باردة لم يجد راويها من يهتم بها بين اهل هذه البلدة فجاء ينفضها اليّ . وطال سكوت الرجل دون ان اجد من جانبي نوع التعليق الذي اقوله له ، حتى عاد هو الى الكلام وقد هدأ ما بدأ به من اندفاع فأخذ يتلفظ كلماته بهدوء وبطء ، وهو يقول :

« انها حكاية غريبة حكاية صاحبي هذا . بل لماذا لا اقول لك الحقيقة ؟ انها في الواقع ليست حكاية صاحبي بل حكايتي انا بالذات . وقد اعتذرت اليك منذ الاول عن ازعاجي لوحدتك وابتعادك عن الناس في هذه العشية . الا انك اثرت حديثا فاثار الحديث في نفسي اشياء كثيرة . لك ان تقول غدا ما تريد ان تقوله عني ، ولكنني سأروي لك قصتي » .

---

كان هدوء الرجل واتزان كلماته الاخيرة اكثر اثرا في نفسي من اندفاعه وقهقهته الهستيرية . ووجدتني اهتم بما يريد روايته لي ، بل اني وجدتني في شوق وترقب لما يريد ان يقول . لقد عرفت اسمه فيما بعد ، وعرفت مكانته التي شغلها قبل ان تجري له حكايته التي قصها عليّ وقبل ان يقدم الى هذه البقعة النائية على شاطىء بحر العرب . وانا اسميه هنا احمد ، لان اسمه الحقيقي سيجعله معروفا عند كثيرين ، في حين ان حكايته في نظري اوسع من ان تكون حكاية شخص بعينه : انها حكاية جيل او شعب وربما امة بكاملها ، فما نفع ان نربط الحكاية بفرد ؟ وكذلك فان الاسماء التي اعطيها لاصحابه ليست اسماءهم

الصحيحة ، فقد بدلتها للسبب نفسه . وانا لا ازال اذكر الآن كيف انحدر احمد من الصخرة الى الارض وكيف احتبى امامي كأنما كان يريد ان يكون اوثق في جلسته ليقص قصته . ولا ازال اذكر ، وكانت عيناي قد تعودتا الظلام حتى صرت ابصر ملامح وجهه ، كيف كانت تتغير تقاطيعه بتغير احداث حكايتـــه من القسوة الى التألم الى الثورة الى الحزن العميق .

بدأ احمد حديثه بروايته حكاية انتحار صديقه سهيل وماذا كان رأي الناس وماذا كان رأيه هو ، اعني احمد ، في ذلك الانتحار . قال :

« بعض الناس رأوا في انتحار سهيل نتيجة لأساه من فشل جهودنا ، نحن الذين قبضنا على ازمة الامور في بلادنا فترة من الزمن وحاولنا توجيهها في الطريق الصحيحة ، او نتيجة ليأسه من ان تسير الامور في يوم ما نحو المثل الاعلى الذي حلمنا كلنا ، وسهيل واحد منا ، بتحقيقه . اما انا فقد رددت انتحار سهيل الى فرط حساسيته ، دون ان اتهمه في اخلاصه لقضايانا العامة او في حبه لبلاده . وقد عنيت بالحساسية عند سهيل حساسيته الاجتماعية . دعني اوضح لك ما اعني : لقد كنا عصبة قبضنا على مقاليد الامور في البلاد بسلاح من جرأتنا وبمراهنة خطرة على مصائرنا وحيواتنا . وكنا نرى في انفسنا سلامة الادراك ثم التجرد المثالي ، فوقفنا طوعا في الصف الثاني ، رقباء ذوي سلطان على الحكام دون ان ننغمس في حمأة الحكم . تأمل كيف كانت قوتنـــا ومنزلتنا في المجتمع آنذاك ! وفجأة ، وباحدى البهلوانيات التي تعرف ، رأينا انفسنا في الحضيض ، او ان بعضنا رأى نفسه في الحضيض . حدث عدم تطـابق آنذاك بين ما تعودته نفوسنـا وظنت انهـا ستظل عليه ابدا او امدا طويلا من جهة ، وبين ما حدث لها فجأة من جهة اخرى . وانت تعرف ماذا يحدثه عدم التطابق في المعدن اذا كان هشا . انه ينكسر ! لقد كان معدن نفس سهيل ، كما رأيته حينئذ ، هشا بفرط حساسيته لما كانت تقوله زوجته وصديقات زوجته وما كان يردده الناس المخدوعون والمنافقون وما تكتبه الصحف وتذيعـــه الاذاعات ، فانكسر وانتحر . امـــا انا فقد كنت احسبني مستعصيا على الكسر لاني كنت منيعا ، بطبيعة تفكيري ونظرتي الى الحياة والناس ، عن ان ارى امرنا الذي كنا فيه في الاول غير حالة طارئة ستزول يوما ما بارادتنا او على الرغم منـا ، ونعود بعدها الى حالنا التي هي حالنا الحقة . كنت اقول لنفسي : ماذا ترى قد نقصنا بعد ان اخذ غيرنا منـا الاعنة ؟ كانت لا تزال تحيط بنا من هالة الرهبة والتقدير بقايا تكفي لان تكسبنـا هيبة واحتراما . وكان عيشنا مؤمنا حتى الرفاه ووقتنا الفارغ وفيرا . وكسبنا بعد ذلك راحة الفكر والخلاص من هذا القلق المضني حين تتولى مسؤولية ذات بال : قلق المترقب سوء الحال اذا كانت

الحال حسنة ، المجهد بتحسين الحال اذا كانت الحال سيئة . وبالاجمال لقد وجدتها صفقة رابحة ان اقرّ في بيتي بعد ان حدث ما حدث . وقد اعانتني زوجتي التي ظلت في ابان كل ذلك ، كما كانت قبله ، تغادي مدرستها التي كانت تعلم فيها في الصباح وتتركها في المساء ، كأنها بسلوكها في العمل والدار كانت تقول ان ما يهمها مني هو انا ، بشخصي المجرد ، لا ما يتعلق بي من غار المعارك او غبارها . وكان ذلك امري حتى شبت في شمال البلاد تلك النار .

« كانت نارا صغيرة اطفئت بسرعة حيث شبت ، ولكنها ذكرت بنا الحكام . لم تكن لي اية علاقة بشبوب تلك النار ، يعلم ذلك الله ، وعلمه بعد ذلك من ظنوا بي الظن السيء . قيل لي في احدى الامسيات انهم جاؤوا الى الدار يسألون عني سؤالا مريبا ، فذهبت الى مقرهم استفسر لم يسألون . ودخلت المقر كما ادخل منزلي ، فقد كان لي في ذات يوم منزلا . هناك رحبوا وخاطبوني بيا سيدي ، ثم اعتذروا عن ازعاجي قبل ان يرسلوني الى محقق ادنى ممن استقبلوني في الاول رتبة واقل لطفا . واحالني المحقق الى من دونه في الرتبة وفوقه في الجفاء ، وهذا الثالث احالني الى الرابع الذي قادني ، بكل بساطة ، الى السجن . السجن الذي تحبس فيه عن الناس حريتهم وتنزع عنهم فيه ، فيما عرفت بعدئذ ، انسانيتهم !

« فيما عدا الحبس الذي وصفته لي اليوم ، قل لي يا استاذ ، هل دخلت سجنا في حياتك ؟ ربما كنت قد دخلته كزائر ، كما فعلت انا مرات قبل هذه المرة . السجن قد يعني عندك البناء المعتم الذي ترشح جدرانه بالرطوبة وتملأه رائحة مزيج من العفن والدسم وعرق المحمومين . قد تذكرك كلمة السجن بابواب من الحديد المشبك تلمع وراءها اعين السجناء وتبدو من خلال شباكها وجوههم المنتفخة بالخمول ، الشاحبة شحوب الشمع لحرمانها من نور الشمس . ولكن السجن الذي قادوني اليه كان شيئا آخر . تصور ساحة مستطيلة يملأها ضوء النهار ، مفروشة بالرمل الاحمر كأنها اعدت لترويض الخيل ، يقوم في اقصاها بناء مكعب تشق واجهته الخرساء كوى صغيرة كأنها عيون فقدت الابصار في وجه فقد التعبير . هذا اول ما طالعني من السجن الذي اقتدت اليه . اكثر ما اثار انتباهي حين دخلنا الساحة المستطيلة لم تكن لفائف الاسلاك الشائكة التي تفرشها على طول قاعدة السور المحيط بها ، ولا حاملي الاسلحة الرشاشة الذين كانوا يطلون من اعلى البناء وفوهات رشاشاتهم لاحقة بنا كأنهم حريصون ، ونحن نخترق الساحة ، على ان يبقونا دوما في مرمى رصاصهم . كان اكثر ما اثار انتباهي لغط غريب صادر من كل جوانب بناء السجن كأنما كانت تنفثه تلك الكوى العمياء ، وكان يزداد علوّا كلما اقتربنا من باب البناء ، حتى استحال الى ضجة عاصفة حين وقفنا امام عتبته . كان لغطا مزيجا من خطب حماسية

واناشيد ثورية وقهقهات ماجنة واغاني عاطفية، تنقله مكبرات للصوت مضخما حتى ليغطي على كلام مرافقك الذي يجاورك وحتى لتتأذى به اذن من يكون في آخر الساحة المستطيلة. نعم لقد اثارت هذه الضجة الغريبة انتباهي وشعرت برغبة في الاستفسار عنها، لولا ان مرافقي كان من الاستعجال بما لا يترك لي مجالا لسؤاله، ومن الجفاء بما لا يضمن لي منه جوابا لو اني استطعت ان اسأله. ودخلنا البنـاء بعد شكليات سريعة قام بها مرافقي، واتجهنا في احد الممرات الطويلة، تملأ اسماعنا وتدق على اعصابنا تلك الضجة التي ازدادت صخبا بتردد اصدائها بين جدران البنـاء، حتى بلغنا غرفة تنحدر عن مستوى الممر بضع درجات. كان باب الغرفة مغلقا فوقفنا عنده لحظة. وهناك فارق مرافقي جفاؤه بصورة مفاجئة، اذ تحول ذلك الجفاء الى غلظة وقحة قطعت عليّ انفاسي: لقد وضع يديه على ظهري ودفعني الى داخل الغرفـة بقوة جعلتني لا امتلك نفسي الا بعد ان اصبحت في وسطها وقد صعد الدم الى رأسي في مزيج ملتهب من الدهشة والغضب.

«اول ما فعلت اذ ثبتّ على قدمي بعد اندفاعي ان التفتّ الى ورائي ابحث عن مرافقي وقد استحالت كل الطاقة التي في عضلاتي وكل الثورة التي في اعصـابي الى قبضتي واصابع كفي. ولكن التفاتتي كانت عبثا؛ كان البـاب قد اغلق ورائي ولم يكن لمرافقي اثر في الغرفة. وأغلقت اجفاني وفتحتها بسرعة ولمرات متتاليـة، فقد كان الضوء في الغرفة ساطعا، تبعثه مصابيح قوية في السقف، يبهر البصر بعد ظلام الممر الطويل الذي جئت منه. وادرت رأسي حولي اتأمل الناس الذين كانوا معي في الغرفة. كانوا ستة، سبعة، بل ثمانية رجـال يرتدون كلهم ملابس الجنود فيما عدا واحدا كان عاري الرأس، يلبس قميصا داخليا بحمالات فوق بنطلون من الخاكي. كان رئيسهم ولا شك، ما دام يجلس وراء المنضدة الخشبية في زاوية الغرفة وما دام يسمح لنفسه ان يظهر بهذا الزي المتبذل امـام الجنود النظـاميي الملابس. وكنت لا ازال اشعر بالحنق كرباط يشد على عنقي ويعقل لساني عن الكلام، بينما كان الدم الذي ينبض بقوة في شرايين صدغي يلهب دمـاغي ويحول بيني وبين ان اجمع افكاري. وقبل ان استطيع ان اتلفظ بكلمة او اطلب تفسيرا امتدت يد احد الجنود الى عنقي، فجرت الربطة التي تحيط به بعنف امال رقبتي على كتفي قبل ان تنحل من قبتها، ثم جاست تلك اليد في جيوبي فاخرجت منهـا كل ما تحويه من مفاتيح ونقود واوراق، وانتهت الى قدمي فجذبت رباط حذائي والقت به بعيدا. ماذا يريد هؤلاء الناس مني، ومن يظنونني؟ هكذا قلت لنفسي، وفتحت فمي اريد ان اخاطب رئيس هؤلاء الجنود، ولكن حركة بدرت منه جعلتني احجم عن الكلام وانتظر ماذا يفعل هذا الرئيس. رأيته يقوم من مجلسه وراء المنضدة، وقد وضع يديه على خاصرتيه، ويتجه نحوي مثبتا بصره فيّ. واقترب مني حتى لمحت على قميصه البقع القذرة التي خلفها

العرق المتبخر وحتى شممت من فمه رائحة التبغ الرخيص ينطلق ممزوجا بلهاثه . وفجأة ، حين كاد رأس انفه يمس وجهي ، انحرف عني وتابع سيره الى الباب . وقبل ان اسمع صوت انغلاق الباب وراءه سمعته يقول : دبروه !

« سبعة رجال كانوا في الغرفة ، سبعة شباب عراض الاكتاف ، مفتولو العضل حديديو القبضات ، سبعة وحوش بشرية . وكنت بينهم وحيدا ، كرة انسانية خلقة تتقاذفها ايديهم وارجلهم . نعم ، لقد ارتفعت عليّ ايديهم بالضرب وانطلقت اليّ ارجلهم ركلا ورفسا وبتواتر غريب . وكانت الضربات على انحاء جسدي من التلاحق والشدة بصورة ما كنت اعرف معها اين اضع يدي لاتقي بها اللكمات وضربات الاقدام . يا الله ، ماذا فعلت لهؤلاء الفتيان السبعة حتى تملكتهم كل هذه الحدة في ضربي ؟ وشعرت ، بينما كانت احدى ذراعيّ تعمي وجهي من لكمة اصابت شفتي فمزقتها ، شعرت بالدمع ينفر حارا من عيني . فعضضت على شفتي الممزقة بشدة حابسا في حلقي صرخة الالم التي كانت ستنطلق . من المؤكد ان الدمع لم يكن من وجع الضرب ، ولكنه من هذه الاهانة وهذا الاذلال . أأضرب هكذا وانا حي ؟ وكان صوت في ضميري يقول : انهم يضربونك ليسمعوا منك صرخة الالم ، فلا تصرخ ! غرست اسنان فكي الاعلى في شفتي السفلى حتى احسست بطعم الدم مالحا في فمي ، ولم اصرخ . كانت بعض الضربات تنزل برأسي فأحسّ بانه غاص بين كتفيّ ، وبعضها يطير الشرر من عينيّ ، وبعضها ينزل بضلوعي فاحس انها تحطمت او على ظهري فاحس انه انقصم . وما كان يلهيني عن الم ضربة الا الم التي تليها ، والا الالم المحرق ، الغريب في لذعه ، الذي ينزل باعماق وجداني ، الم الكلمات التي كانت ترافق تلك الضربات . ماذا استطيع ان اعيد من تلك الكلمات ؟ ان بعضه سباب ازقة يترفع الانسان عن رواية لفظه البذيء . وبعضها تجديف على الخالق ونواميسه . وبعضها ، اذا ما تدبرت ان من يقولونها كانوا ببغاوات تهتف بهتافات من لقنوها ، تجرد من الاخلاق ومن حب الناس ومن حس الانسانية .

« لحظات قصيرة ام دقائق طويلة ؟ لا ادري كم استغرق من الوقت تعرضي لايدي الجنود السبعة وارجلهم . قطع وابل السباب والعذاب المنهمر على جسمي ضربة حادة من قدم احد الجنود في اعلى بطني ، احسست بعدها بان الما مبرحا تشعع من معدتي وانطلق شرره الى كل عضو من اعضائي ، وان جسدي قد انقصم الى نصفين التوى احدهما على الآخر . تلك هي المرة الاولى التي فقدت فيها سيطرتي على نفسي ففتحت فيها فمي لاصرخ . اصرخ بماذا ؟ كنت اريد ان اصرخ قائلا : يا امي ! ، ولكني لم افعل ، لا لاني احجمت بطوعي عن الصراخ بل لان الالم كان من الشدة بدرجة انحبس معها نفسي وشلت حنجرتي عن ان تتلفظ بهمسة . وعاد اليّ شعوري بذاتي بعد لحظات ففطنت الى ان الضرب قد

كفّ عني ، والى اني ملقى على الارض منطويا كزناد البندقيـة ، ويداي تضغطان من بطني على موضع ضربة الحذاء التي تحولت من الم متشعع الى حس تمزق كأنما كانت هناك سكين حادة تتقلب في امعائي . وبذلت جهدا كبيرا لارفع رأسي واتطلع الى ما حولي . لا ادري كيف كان منظري حينذاك . فلا بد من ان رأسي ووجهي كانا كتلة من التورم والكدمات يغطيها الدم والدمع ، فقد كنت احس بثقل رأسي واشعر بملوحـة الدمع اللاذعة على بشرة وجنتي الممزقة . ولا بد من ان عينيّ كانتا محتقنتين منتفختي الاجفان ، فقد صعب عليّ في البدء ان اثبت ما حولي برؤية واضحة برغم الضياء الساطع الذي كان يملأ الغرفة . ولكن اشباح غرمائي السبعة لم تلبث حتى تبينت لي بوضوح . كان بعضهم قد استند الى الجدار وقد بدا عليه التعب مما جاهد بضربي ، وبعضهم كان يقف متهيئا للعودة الى التنكيل بي من جديد ، كأنما كان انطراحي كالخرقة الخلقة في اصل جدار الغرفة فترة راحة ، يستعيد بها قوته . وأدرت رأسي ببطء ابحث فيها عن عيون زبانيتي واحدا واحدا . غريبة نفس الانسان وغريب جبروتها ! من بين كل آلامي المعنوية والبدنيـة ، من بين كل جراح نفسي وجسدي ، احسست بومضة اعتزاز تملأ كياني : ليس في عيني واحـد من هؤلاء الجلادين نظرة مطمئنة ، او راحة ، تدل على انه اشتفى او اكتفى . ان نار الحقد لا تزال تحرق قلوبهم لانهم يدركون ادراك الجبناء ان ايديهم الجارحة لا تزال ضعيفة عن ان تصل الى موطن قوتي ، الى نفسي الاصيلة ! وكان هذا الاحسـاس عزاء غريبا لي في محرق الاوجـاع الذي كنت اتقلب فيه ، واغمضت عينيّ التي احرق اجفانها النور الساطع في انتظار وابل جديد من اللكمات والركلات .

« في تلك الاثناء فتح البـاب ، فلمحت بين اجفاني المثقلة رئيس الجلادين ، الرجل ذا القميص الداخلي المبقع ورائحة التبغ الرخيص ، يدخل . سمعته يتساءل : هل اخذ نصيبه ؟ فكان جواب رجاله قهقهات لئيمة والفاظ سباب تعنيني واقوالاً لم تثبتهـا اذناي اللتان كانتا تطنان طنينا غريبا فوق ارضية من ضجـة مكبرات الصوت التي كانت تتسلل الى الغرفة عبر البـاب المغلق . ورأيته يضحك وهو يشير بيده الى شيء كان معلقـا على الجدار . فاندفع احـد الجنود ولحقه آخر ، فامسكا بيدي تحت كتفي ولويا مرفقي بحركتين متماثلتين ، كأنما كانا في ذلك يتبعان طريقة بعينها ، طالما تدربا عليها ، من طرق العذاب ؛ ثم جراني حتى توسطا بي الغرفة وتركاني هناك مضطجعـا على ظهري . مرت لحظة سعيدة شعرت في اثنائها وانا مستلق بانبسـاط اعضائي وامحاء التوتر في اعصابي المشدودة . واغمضت عيني مستمتعـا بتلك الراحة الجزئية ، وقد تسرب الى نفسي ان حضور الرئيس نعمة ، وانه لن ينالني شر ما دام موجودا . الا ان تلك اللحظة لم تطل . قطعها شعوري بان قدميّ اخذتا ترتفعان في الهواء ، وتنتزعان من حذائيهما ، وتسندان

مجموعتين الى عصا خشنة الملمس ، ففتحت عينيّ دهشا . اذاً فهذه طريقـــة اخرى من طرقهم في التعذيب والاذلال ؛ انها الفلق ! واستغربت ان الارتيـاع لم يدخل اليّ برؤية زبانيتي وهم يتهيأون لمهمتهم الجديدة ، بل رحت اراقب حركاتهم فيما يشبه الهدوء كأن كل ذلك كان يهيأ لانسان آخر غيري . رأيت احدهم يتنـاول من الجدار حبلين عجبت من ان عينيّ لم ترهما قبل الآن . ولكن هل ترك هؤلاء الكلاب لي وقتا اتطلع فيه الى ما كان يحيط بي ؟ اما في هذه اللحظة ، وانا مستلق على الارض الصلبـة ، ويداي ممدودتان الى جانبي في استرخـاء ، ورأسي بعيد عن قبضات معذبي الخشنة ، فقد كان لديّ كل الوقت لاتأمل في الغرفة ومن فيها وما فيها . تبينت مثلا ان الحبلين كانا سوطين معدين لينهالا على قدميّ ضربا . وان كلا منهما مكون من ثلاث شرائح من المطاط ، مجدولة كضفيرة ، ليس من المطاط المرن الاملس بل من مطاط اطارات السيـارات الخارجية الخشن ، الحاد الحواشي . وتبينت كذلك انه لم يكن عبثـــا ان كان جلاديّ سبعة في العدد ! فقد حمل اثنان منهما خشبـــة الفلق المربوط بها حبل غليظ ، وادخلا قدميّ في الربقة بين الخشبة والحبل ، وادارا الخشبة حتى انحبست قدماي فلم يعد لي ان ابعد احداهما عن اختها . والصق اثنـان آخران ذراعيّ المنبسطتين كذراعي المصلوب ، بالارض حتى اثبتاهما عن الحركة . ووقف الخامس عند الرأس مطبقا باصابعه الخشنة على كتفيّ حابسا بين ركبتيه جمجمتي . اما بقية السبعة فقد أمسك كل منهما بسوطه المجدول ، ووقف يشمر ذراعه عند قدمي . وفي لحظة واحدة ، لا بد من ان الرئيس قد اعطى اشارتها ، الصقت ذراعاي ومنكباي بالارض ، وارتفع ساقاي بخشبة الفلق ، وانحدرت على قدمي ضربات السوطين متلاحقة ، عنيفة ، مؤلمة ، جارحة ، ممزقة .

« ترى ما عدد الالوان التي يعرفها الانسان للذة ؟ لا اظن هذا العدد كبيرا ، واحسبه لا يتجاوز عدد اصابع اليدين . اما الالم فان الوانه ، على ما اعتقد ، تفوق الحصر . لقد ذقت شخصيا من صنوف الالم ، في ذلك اليوم ، ما لا استطيع ان احصي لك فروقها في الشدة والطابع والتوتر . والم تلك السياط في وقعها على قدمي كان شيئاً غريبا ، شيئاً لا يطاق . لم يترك لي الالم المذهل فرصة يسيطر فيها تفكيري على اعصابي ، وكنت بشرا ، فصرخت . صرخت بقوة . من سمعني حين صرخت ؟ لا احد ، غير جلاديّ ، بدون شك . فلمثل صرختي هذه كانت مكبرات الصوت تذيع ذلك الخليط من الاصوات العالية المزعجة التي تختنق بين ثناياها انات التوجع وصيحات الاستغاثة وحتى حشرجة المحتضرين . مـاذا قلت في صرختي ؟ هل استغثت واسترحمت ؟ لا ادري في الواقع ، ولكني لا اظن اني فعلت ذلك . هل ثرت وهددت ؟ في الحقيقة اني لا ادري ماذا قلت . ولكن يبدو ان صرختي كانت من القوة بحيث ازعجت اولئـــك الزبانية ، فقد مد ذلك الجاثم على

ذراعي اليمنى يده الى احدي فردتي الحذاء الذي كان ملقى بجانبي على الارض، وليسكتني حشا بها فمي .

« تصور ... ذلك الحذاء في فمي ! لعلني قادر على ان انسى كل ما مر بي من عذاب ومهانة في ذلك اليوم ، وفي ايام غيره ، وكل شعور سعيد او شقي مر في سني عمري كلها ، ولست قادرا على نسيان مذاق النعل في فمي. من يستطيع ان يتصور ما مذاق النعل غير الذي ذاقه ؟ فانا الذي كان يمسك بي ، ويجثم على بدني المرضوض المحطم وعلى نفسي المهيضة ، خمسة رجال عراض الاكتاف مفتولو العضل مملؤون حقدا ووحشية ، لم اقو على احتمال مذاق النعل في فمي ، فانفجرت كل ما في خلايا جسدي من قوى في انتفاضة حررتني من ايدي جلاديّ . وكان اول ما فعلته ، والشيء الوحيد الذي فعلته ، ان انتزعت الحذاء من فمي وقذفته بقوة حتى سمعت صوت ارتطامه بالجدار .

« لم امتلك نفسي بعد تلك الانتفاضة الا قليلا . فقد نزل بي اللكم والركل من جديد، ومن جديد طرحت على الارض ، واطبقت الايدي الخانقة على صدري وعنقي وعلى ذراعيّ ورأسي ، ورفعت رجلاي الى اعلى مما كانتا عليه ، وتلاحقت ضربات السوطين المجدولين بسرعة اشد وبحنق مغيظ. الا ان ذلك لم يدم طويلا لحسن حظي. فقد غبت عن الوعي ، واصبحت الشاة مذبوحة ، او كالمذبوحة ، بنجاة من ان تتألم من السلخ » .

---

وسكت احمد بعد حكايته الطويلة هذه . قبل ان يسكت كان يتكلم دون انقطاع ولا مقاطعة مني ، غير متردد في اختيار كلماته ولا مجهدا نفسه في استعادة ذكرياته . لعله كان يستعيد هذه الذكريات لذاته كل يوم ويقص قصته على نفسه بصورة مستمرة ، فلما وجدني لقي بي سامعه الاول فنفض اليّ جملة واحدة حديثه الذي طالما تردد في حنايا وجدانه . اما انا فقد اصغيت الى احمد دون ان اقاطعه بدافع الفضول في البدء ، ثم بدافع التأثر ، ثم بدافع المشاركة بالاستهجان والتألم لما كان يقصه عليّ من قصة تعذيبه النفسي والجسدي . لقد نقلت جهدي وبقدر ما اتذكر اقوال احمد التي رواها على مسامعي وسطرتها احرفا على الورق . ولكن ما اظنني مستطيعا ان انقل للقراء لهجته ونبرة الالم في كلماته وبحة المخنوق في صوته حين كان يصف عذاب الروح والجسد الذي انزله به اولئك الزبانية. كما اني لا استطيع ان اصف مشاعري الخاصة وانا استمع اليه وهو يروي تقلبه في محارق عذابه . ولما وقف في الحديث عند غيابه عن الوعي من شدة الالم ، بعد ان تخلص من مذاق النعل في فمه ، لفنا صمت طويل لم نكن نسمع فيه في ظلام الليل وسكون الشاطىء المقفر الا صوت تردد انفاسنا وربما دقات قلبينا . وكان لا يزال محتبيا على الرمل

تحت الصخرة التي كنت انا جالسا عليها ، محني الراس ملقيا ذقنه على صدره ، كأنما كان في حديث مع نفسه يتمم به حديثه اليّ الذي انقطع. وكدرت انا السكون المخيم بقولي:

« كيف اطلقوا سراحك بعدئذ ؟ هل عرفت مثلا لم فعلوا بك كل هذا ؟ »

احسست بان سؤالي من السخف بمكان كبير، حالما القيته. فان المهم في كل حكاية احمد ليس مبررات ما نزل به واسبابه، بل هو ما نزل به ذاته. اقصد الوان العذاب الذي نزل بنفس ذات كرامة انسانية ، كرامة العقل الانساني والمشاعر الانسانيـة . دعني مما يؤكده احمد من براءته من كل جناية ، وافترض العكس ؛ اهناك جناية تستطيع ان تبرر ما حدث لاحمد ؟ لاي انسان كأحمد الانسان ؟

قال احمد ، وما كان قوله جوابا على سؤالي ، بل انه كان يعود الى تتمة حديثه اليّ ، او انه كان يتمم حديثه الذي كان يسر به الى نفسه :

« ها انا ذا الآن هنا ، بعيد بعيد عن مسرح تلك الاحداث . اني افكر الآن بسهيل ، سهيل الذي خانته ، لفرط حساسيته الاجتماعية ، اعصـابه فتحطم معدنه وانتحر . لقد اكتشفت هنا اني كنت ظالمـا له . كان ابعد نظرا مني ، فتخلص من مذاق النعل بالموت . ان اطفالنا الصغار يتعلمون في المدارس ان النار والعار والمنية ولا الدنية . ولقد آثر سهيل المنية ، فكان خيرا مني في التفكير وفي المصير » .

وسكت احمد مرة اخرى . ولم اشـأ ان اعود الى سؤال سخيف مثل سؤالي الاول ، بل تركته لسكوته ولافكاره . ولم يلبث حتى عاد الى الكلام قائلا :

« كان سهيل افضل مني ، وافضل بدون شك من بعض زملائنا الذين كانوا يزعمون انهم معنا ايمانا بالقيم الخيرة ، فلما هبت الريح الى اتجـاه آخر مالوا معها . هؤلاء الذين يزحفون في ركاب الموكب السائر الآن ليس لهم في نفسي اي احترام ما دمت ارى افواههم محشوة بالنعال وقد استمرأوا مذاقهـا ، فهم لا يفكرون حتى في التخلص منها . كانوا مثلي يقولون ان سهيل خانته اعصابه وضعف فانتحر ، بينما هم في الحقيقـة لا يصلون في القدر الى كعب قدم سهيل . ولكني هنا ، على هذا الشـاطىء البعيد ، اتساءل عن زملاء أخر غير هؤلاء ، زملاء في عصبتنا التي ملكت اعنة الامور في تلك الايام . انهم لم ينقذوا كرامتهم بالموت كما فعل سهيل ، ولا تجردوا من انفسهم بالاحاء كما فعلت انا ، بل عادوا الى الميدان، ينتظرون في تيقظ او يعملون في الخفاء، يجدلون اسواطاً اخشن من تلك التي جلدت انا بها ، وينحتون اخشـابا اقسى من التي صلبت رجلاي عليها في السجن ، ويجمعون النعـال ليحشوا بها فم الظالمين في يوم مقبل . اترى هؤلاء افضل من سهيل ، او مني انا على الاقل ؟ »

القى احمد سؤاله الاخير عليّ ثم نهض ، دون مقدمات ، من مكانه . وكانت النجوم فوقنا قد قطعت مسافات شاسعة ، في اديم السماء ، من الشرق الى الغرب ، ونحن في مجلسنا على الشاطىء . كما ان اضواء قصر الشيخ ، التي كانت تلوح لاعيننا من بعيد ، قد تضاءلت الى ضوء او اثنين . فكان لا بد من الرجوع الى دار مضيفي ، لاسيما وان الركب الذي سأترك المشيخة معه غداً سيغادر القرية باكراً . وعدنا معاً ، وأحمد يسير امامي بعد ان استأذنني في ذلك ليجنبني ، على حد قوله ، عثرات الطريق . ورحت اتأمل في ثوبه الابيض الذي كان يخفق امامي بحركات خطوه وبهبات الانسام التي اصبحت بليلة باردة بعد ان كانت دافئة ، وافكر في مغزى تساؤله الاخير . في الواقع لم افهم اول الامر ماذا كان يعني بذلك التساؤل . ولكني بالتفكير فطنت الى ان احمد ، بالرغم من كل شقائه بما لقي من الضرب والتحقير ، وبمذاق النعل ، وبما سماه امحاءه في هذا المنفى المجدب البعيد ، لا يزال امينا لمثله العليا متصفا بالتجرد الذي كان يتصف به حين كان في اوجه . انه حتى في هذه الحال وهذا المجال مشفق على الاناس الذين سترتفع اقدامهم على خشبة الفلق التي رفعت على مثلها قدماه ، وعلى الذين سيذوقون من مذاق النعل ما ذاقه . ان عذابه لم يقض على احساسه بانسانيته ، وامحاءه لم ينسه وجوده ، وجوده كانسان . وآية ذلك قلقه وحيرته وتساؤله ايهم خير : الميت والممّحي ام العامل لغير ما يتلاءم مع كرامة الانسان والانسانية ؟

اسفت في نفسي على ان الظروف لن تسمح لي برؤية احمد مرة اخرى . ولعله قد علم باني مغادر القرية غدا فلحقني الى جلستي المنعزلة فنفض اليّ حكايته المؤلمة المخزية ، ولو علم اني اراه مرة اخرى لما فعل . وصعدت وراءه المرتفع في الطريق المرملة التي ترتقي الى القرية . وفي آخر تلك الطريق القى عليّ تحية الوداع واتجه يمينا ، بينما وقفت انا اتأمل فيه ، بقعة بيضاء في سواد الليل اخذت بالتلاشي شيئا وراء شيء ، حتى غلبت عليها العتمة وابتلعها الظلام .